

طلال سلمان... القلب الأبيض والورق الأسمر والحبر الأزرق

صقر أبو فخر

11 أغسطس 2023



يوم أمس الخميس، رحل مؤسس وناشر صحيفة السفير اللبنانية طلال سلمان عن 85 عاماً. يعيد "العربي الجديد" نشر مقال يضيء على مفاصل في سيرة سلمان ومواقفه، للكاتب صقر أبو فخر نُشر قبل أشهر.

طلال سلمان أحد أبرز الصحافيين العرب، ومؤسس صحيفة السفير التي تُعد بحق إحدى أهم التجارب الصحافية التي عرفها العالم العربي في تاريخه المعاصر. ومن يعرف طلال سلمان يدرك أنه أديب متوار سرقته الصحافة من الأدب في ذروة إرهاصاتها في أواخر خمسينيات القرن المنصرم. وهو من بين صحافيين عرب قلائل تطلّع منذ بداياته المهنية إلى أن تكون الصحافة مزيج

صحيفته منبراً طليعياً لقضايا العرب ولقضية فلسطين.

وبهذا المعنى، كانت "السفير" مطبخاً مهماً للأفكار والآراء وفي أقبائها وطوال أكثر من 40 سنة انعقدت مجالات فكرية وسياسية ما كانت لتنتهي البتة، وفيها تلاقحت مكونات شتى للتجارب الفكرية والثقافية عربية ولبنانية، الأمر الذي جعلها، بجدارة، تجربة رائدة في الصحافة العربية، ولا سيما حين تمكنت من جمع اللبناني إلى الفلسطيني إلى السوري والمصري والعراقي والأردني والتونسي في لوحة واحدة.

> انتهى تألق الصحافة اللبنانية وانحسر دورها الريادي بانتهاء تجربة صحيفة السفير اليسارية العروبية في 2017، وانتهاء تجربة صحيفة النهار الليبرالية الكيانية مع وفاة غسان تويني في 2012

ولد طلال سلمان في بلدة شمسطار البقاعية اللبنانية في سنة 1938 لوالد كان صف ضابط (رتيباً) في قوى الأمن الداخلي، وكان الأب ينتقل في كثير من المناطق اللبنانية، ورأس مخافر عدة في بلدات متناثرة. وجراء تنقل والده بين البلدات اللبنانية المختلفة والمتباعدة، خضع، منذ طفولته، لقانون التنقل بين المساكن والمدارس فلم يستقر في مكان واحد أو في مدرسة ثابتة. ولعل هذا التنقل القسري أفاده في جانب مهم، هو اكتشاف المناطق اللبنانية المختلفة، واكتشاف اللبنانيين بانتماءاتهم الأهلية وتقاليدهم القروية.

بدأ وعيه السياسي يتبرعم في الأجواء التي أطلقتها ثورة 23 يوليو (1952) في مصر التي كان لها التأثير الأكبر في جذبه اتجاهه إلى السياسة. ومما يؤكد ذلك أنه تفتح وجوده في مدرسة بلدة المختارة الدرزية في أوائل خمسينيات القرن العشرين، وهي مقر زعامة آل جنبلاط في الجبل اللبناني، مطلعاً على بعض جوانب الواقع اللبناني، فعايش أول "انقلاب" سياسي لبناني ضد حكم الرئيس بشارة الخوري في سنة 1952. وفي بلدة المختارة تعرف إلى كمال جنبلاط الذي كان طموحه تحويل كثير من الشبان اللبنانيين التائقين إلى العدالة الاجتماعية، وإلى ربط لبنان بقضايا العرب والعروبة وفلسطين.

وفي هذه الأجواء المتلاطمة، بات طلال سلمان قومياً عربياً من دون الانخراط في أي من الأحزاب القومية، كالبعث مثلاً، مع أنه صار لاحقاً قريباً على المستوى الشخصي، من مؤسسي حركة القوميين العرب أمثال جورج حبش وهاني الهندي علاوة على غسان كنفاني ومحسن إبراهيم.

شغف بالكلمات منذ طفولته، وسحرته الكتب القليلة في منزل الوالدين وحكاياتها المسكونة بالحكايات والأفكار والمعارف. ومنذ دراسته الثانوية الحق بالصحافة والكتابة، وراح يكتب بعض المقالات والخواطر في مجلة الأنشاء الناطقة بلسان الحزب التقدمي الاشتراكي. وحين أنهى دراسته الثانوية في 1955، منحه والده أربعين ليرة لبنانية (نحو 200 دولار بأسعار اليوم) وقال له: "لقد أمّنت تعليمك الأساسي وسكنك، فهذا كل ما أستطيع تزويدك به". وكانت عائلته الصغيرة تتألف من مجموعة من الشبان والشابات، جميعهم أصغر منه، وهم يحتاجون للغذاء ينوء بها كاهل والده الدركي.

عاد إلى بيروت وحيداً إلا من ذلك المبلغ المالي البسيط، وسكن لدى أقارب له في إحدى ضواحي العاصمة، وراح يبحث عن عمل في حقل الصحافة، فعثر سنة 1956 على وظيفة مصحح في صحيفة الشرق الظهرية. وفي تلك السنة، وقع العدوان الثلاثي على مصر فكانه كان موجوداً منذ بداياته الصحافية للقضايا العربية الكبرى، مثل الوحدة العربية وفلسطين والجزائر وقضايا العدل الاجتماعي. ولا غرو في ذلك، فهو من بيئة عانت التهميش والفقر والظلم وعدم الرعاية الحكومية، وكان أبناء منطقته يشكون عدم اهتمام السلطات الرسمية بهم وبأحوالهم، الأمر الذي رسّخ منذ يفاعته حساسية واضحة ضد الظلم الاجتماعي، ووعياً حاسماً في ضرورة النضال لإزالة هذا الظلم.

بدأ العمل من دون أجر في ميدان "التصحيح" مرحلة تجريبية وتدريبية، ثم انتقل بسرعة إلى "المطبخ" الذي كان يلتقط بواسطته الموضوعات والأخبار من صحف الصباح ليعيد تحريرها فوراً في صحيفة الشرق. غير أنه لم يستمر في هذا العمل إلا فترة قصيرة جداً، فانتقل إلى صحيفة أخرى، وعمل فيها محرراً لقسم الجرائم والحوادث، فكان يتجول ماشياً على مديرية الشرطة والمحاكم ومراكز الإسعاف والإطفاء ويجمع الأخبار، ثم يعود ماشياً أيضاً إلى مقر عمله ليضع حصيلة يومه بين يدي سكرتير التحرير. وعلى هذا المنوال كان التنقل على القدمين أمراً طبيعياً في حياة الصحافة طلال سلمان.

في سنة 1958 اندلعت في لبنان انتفاضة شعبية ضد حكم الرئيس كميل شمعون الذي حاول تمديد رئاسته ست سنوات إضافية بعدما أجرى انتخابات نيابية زائفة في 1957 أسقط فيها كمال جنبلاط وصائب سلام وعبد الله اليافي وأحمد الأسعد، والاحتجاج على موالاته السياسة الأميركية ومعاداته الرئيس جمال عبد الناصر ومحاولة إدخال لبنان في حلف بغداد. وكان الصحافي المعروف سليم اللوزي يرأس تحرير مجلة الحوادث الموالية لعبد الناصر. وقد اعتقلت السلطة اللبنانية آنذاك سليم اللوزي ثم نُقل، على غرار المعتقلين، إلى مستشفى الكرنتينا. وكان والد طلال سلمان رئيساً لمخفر ذلك المستشفى، وكان ابنه طلال يزوره في مقر عمله مرة كل يومين، وفي سجن الكرنتينا جرى اللقاء الأول بين هذا الشاب الطامح إلى العمل في الصحافة والصحافي المعروف الذي تمرّس في مهنة الصحافة في فلسطين ومصر، ثم عاد إلى لبنان ليؤسس مجلة أسبوعية قيّض لها أن تصبح، في إحدى المراحل، من أوائل المجلات في لبنان وربما في العالم العربي. وهكذا انضم طلال سلمان إلى مجلة الحوادث، وبدأ مسيرته فيها في قسم التصحيح أيضاً، لكنه لم يستمر فيه غير فترة قصيرة، كُلّف بعدها إعداد "بريد القراء"، ثم تحول إلى كتابة زاوية لافتة بعنوان "لقطة". وقد اكتشف لاحقاً أن عبد الناصر كان يقرأ الزاوية باستمرار.

وفي "الحوادث"، وجد نفسه بين مجموعة من الصحافيين المميزين، أمثال سليم اللوزي وشفيق الحوت ومنح الصلح وأسعد حومان وجميل مطر ووجيه رضوان، فضلاً عن الرسام نيازي جلول. ولم يلبث أن انتقل إلى قسم التحقيقات بإشراف شفيق الحوت، وتقاسم رئاسته بعد عودة سليم اللوزي من دمشق التي كان قد فر إليها في سنة 1958 هرباً من ملاحقات كميل شمعون. وبالنظر إلى الجهد الكبير الذي بذله طلال سلمان وشفيق الحوت وآخرون في تطوير المجلة، فقد أصبح سكرتيراً لتحرير "الحوادث" ولم يكن بلغ العشرين، وصار كاتب مقالة سياسية.

خرجت لاستقبال عبد الناصر في عاصمة الأمويين، واحتفت بالوحدة التي جمعت مصر وسورية دولة واحدة اسمها "الجمهورية العربية المتحدة". وظلت صورته إلى جانب الرئيس عبد الناصر تحتل مكاناً بارزاً في الطبعة الرابعة من "المطر".

> كانت نصرة الثورة الجزائرية شرفاً كبيراً، وليست تهمة ليخجل منها صاحبها، لكن تهامه بتدبير انقلابات عسكرية كان عملاً كيدياً واضحاً

في سنة 1960، وكان قد أصبح صحافياً معروفاً، عرض عليه رياض طه، نقيب الصحافة اللبنانية في ما بعد، أن ينضم إلى مجلة الأحد مديراً لتحريرها، وهو ما حدث. ولم تكن "الأحد" أرقى من "الحوادث" أو أفضل منها، لكنها صارت مجلة مهمة على يدي طلال سلمان. وفي "الأحد" تعرّف إلى رفيق خوري الشاعر السوري المسلمي الذي بدأ يحرر زاوية بعنوان "خبز المطابع" من الكتاب المهمة المستترة، والذي صار رئيساً لتحرير صحيفة الأنوار، وأحد أبرز كتّاب الأعمدة في لبنان، وانعقدت بينهما صداقة قوية ورسالة مستديمة.

وقد أطلق طلال سلمان مع رفيق خوري في سنة 1961 مسابقة في القصة القصيرة بالتعاون مع رئيس تحرير مجلة الآداب سهيل إدريس، وتلقت عليها القصص من العالم العربي كله، واختير الفائزون بحسب المعايير النقدية السائدة، فكان جميع الفائزين من سورية، ونالت غادة السمان الجائزة الأولى، ونال زكريا تامر الثانية، ولم يطل الزمان كثيراً حتى صارت غادة أشهر أديبة عربية، واحتل زكريا تامر مكانة مرموقة جداً بين كتّاب القصة القصيرة العرب.

ومع هذه الانطلاقة المتسارعة في العمل الصحافي والشهرة الصحافية، أبت المؤسسة الأمنية اللبنانية إلا أن تنقض عليه أيضاً، ولا تترك له من حظوة المهنة إلا القليل، فاعتقله جهاز الأمن العام في آب/أغسطس 1961 بتهمة إقامة صلة مع أحمد الصغير جابر، وهو ممثل جبهة التحرير الجزائرية في لبنان، وتهريب السلاح إلى الثوار الجزائريين، والإعداد لانقلابات عسكرية في بعض الدول العربية.

كانت نصرة الثورة الجزائرية شرفاً كبيراً، وليست تهمة ليخجل منها صاحبها، لكن اتهامه بتدبير انقلابات عسكرية كان عملاً كيدياً واضحاً. ومع ذلك خرج طلال سلمان من السجن والبراءة بعد نحو 20 يوماً من التحقيقات المتواصلة والاحتجاز، غير أن ما آلمه في الصميم اكتشافه أنه فقد عمله في مجلة الأحد، وخاب أمله في بعض زملائه الصحافيين، خصوصاً رياض طه الذي لم يساعده في أثناء اعتقاله كما يجب أن يساعده.

العروبة. قبل الرجل بحرية واحد أن يسافر أولاً إلى الجزائر ليشهد احتفالات الاستقلال الوطني، ويحضر افتتاح الجمعية الوطنية التأسيسية في سبتمبر/ أيلول 1962. وفي الجزائر، التقى الرئيس الأول للجزائر المستقلة أحمد بن بلة، ورفاقه محمد خيضر ومحمد بو ضياف وحسين آيت أحمد ورابح بيطاط وجميلة بوحيرد، ثم ارتحل في الشهر نفسه إلى الكويت مصطحباً معه مجموعة من الصحافيين والفنيين اللبنانيين. وفي 25 فبراير/ شباط 1963 صدر العدد الأول من مجلة دنيا العروبة، لكن عادة بيروت كان يحثه على الإسراع في العودة إلى المدينة التي باتت عاصمة الصحافة العربية، والتي كانت تشهد بمعالم الازدهار العمراني والثقافي السائد في المرحلة نفسها.

التحق طلال سلمان بعد عودته إلى بيروت بدار الصياد التي أسسها السوري – اللبناني سعيد فريحة، وتولى سنة 1967 منصب مدير التحرير في مجلة الصياد. والطريف أنه في أثناء عمله هذا في 1966، دُفع بالقلق من كتابة جزائرية تدعى زهور ونيسي أعطته نصاً لنشرها في المجلة. وفي ما بعد علم أن صديقه أحمد السعيد جابر الذي دخل إلى السجن اللبناني وأنه هو زوج زهور ونيسي. وقد ربطت الثلاثة معاً صداقة وثيقة، مثلما ربطته علاقة فكرية وروحية وسياسية بالجزائر وبالرئيس بن بلة، واستضافه في بيروت مرات عدة. وقد تعرفتُ إلى الرئيس بن بلة في "السفير"، وكتبت عنه حين كان سجيناً، وحين صار طليقاً.

> **تطلع طلال سلمان منذ بداياته المهنية إلى أن تكون الصحافة منبراً حراً للتعبير عن الرأي، وميداناً لتأكيد التزامه القضايا الوطنية والقومية والاجتماعية**

بين سنتي 1963 و1973، أي خلال عقد كامل، تنقّل طلال سلمان بين مجلات ثلاث: الصياد والأحد والحرية. وأتاحت له هذه السنين العشر أن يطلع على خفايا وأسرار وخلفيات كثيرة، وأن يتعرف إلى عدد كبير من ألمع الأدباء والكتاب والفنانين والسياسيين والمناضلين العرب. وهؤلاء جميعاً كانوا ذخيرته في مشروعه الذي رأى النور في 1974: صحيفة السفير.

بين سنتي 1964 و1974 امتدت حقبة الحلم والحب والأمل. وفي أواخرها، بدأ طلال سلمان يعدّ العدة لإصدار "السفير" صحيفة يومية، مع أن تجربته الصحافية انحصرت في المجلات الأسبوعية. وكانت هذه الخطوة تحتاج إلى مشقة الوجود، وبعد جهد متكاثف ومغامرات كثيرة، وبدعم من معمّر القذافي، الناصري في ذلك الوقت، صدر العدد الأول من "السفير" في 26 مارس/ آذار 1974، وكان يتضمن مقابلة مع ياسر عرفات، ويحمل شعار "جريدة لبنان في الوطن العربي وجريدة الوطن العربي في لبنان"، فضلاً عن شعار رديف "صوت الذين لا صوت لهم".

لكن، مع صدور العدد الثاني في 27 مارس 1974 رفعت جمعية المصارف في لبنان دعوى قضائية ضد الصحيفة، ثم وصل عدد الدعاوى إلى 18 قضية خلال العام الأول وحده، الأمر الذي برهن مقدار انخراط "السفير" في الدفاع عن المظلومين والمقهورين والمهمشين، وفي مواجهة الظلم السياسي وأصحاب المصالح الرأسماليين.

حملت صفحات "السفير" منذ الأعداد الأولى أسماء لامعة في الفكر العربي المعاصر وفي الأدب العربي الحديث، مثل أسماء ياسين الحافظ وعبد الرحمن منيف وعصمت سيف الدولة وسعد الله ونوس وطارق البشري ورفعت السعيد وعبد الرحمن الخميسي وكلوفيس مقصود وغيرهم من الأسماء التي حجزت لنفسها مكانة مرموقة في الحياة السياسية والثقافة العربية. كما فتحت صفحاتها أمام اتجاهات فكرية وسياسية متصالحة أو متخالفة كالناصرية والبعث والقوميين العرب والمستقلين القوميين والناصريين والشيوعيين بمختلف اتجاهاتهم السوفياتية والماوية والتروتسكية.

المحتلة في لبنان آنذاك، والمتركزة في بيروت وطابعها التجاري. تمثل الموقف السياسي للسفير بأمرين: رفض الحرب الأهلية كلياً، والوقوف بعيداً عن القوى السياسية الجديدة التي مارست سياسات عربية أثرت، في ما أثرت، إلى اندلاع الحرب.

غير أن واقع الحرب لم يمنع "السفير" من التعاطف مع برنامج الحركة الوطنية اللبنانية والوقوف إلى جانب المقاومة الفلسطينية. واشتهرت "السفير" وكتّابها بالموقف الرافض زيارة الرئيس المصري أنور السادات القدس في 19 نوفمبر/ تشرين الثاني 1977، وسوّدت صفحتها الأولى في اليوم الأول للزيارة: "البداية عند الساعة".

وبسبب المواقف التي كان طلال سلمان يصوغها بوضوح، صارت كلمة "الجريدة" في سورية ولبنان والمخيمات الفلسطينية تعني "السفير". فكان الرجل في دمشق يقول: اشتر لي الجريدة، والجريدة هنا تعني "السفير" لا غيرها. والفلسطيني في لبنان يسأل ابنه الشاب: هل جلبت الجريدة معك؟ والمقصود بها هنا هو "السفير". والجميع يبدأ قراءة "السفير" من الصفحة الأخيرة، حيث يطلّ كاريكاتير ناجي العلي يومياً على الناس.

> فرضت الحرب اللبنانية التي نشبت في 13 إبريل 1975 على "السفير" أن تولد منذ اللحظة الأولى "مقاتلة"

في فجر الأول من نوفمبر 1980، صحا الناس في نزلة السارولا في منطقة الحمراء في رأس بيروت على دوي انفجار كبير هزّ مبنى الصحيفة. وتبيّن أن هذا الانفجار دمّر المطابع في المبنى الجديد لصحيفة السفير، الذي كانت قد انتقلت إليه للتو. ورحلة "السفير" مع الإرهاب هي نفسها رحلة مؤسسها طلال سلمان مع المخاطر المتلاحقة. ففي 1981 جرت محاولة لنسف منزله بأربعة صواريخ موقوتة، وقد جرى تعطيلها قبل دقائق من انطلاقها. وأُلقيت عبوات ناسفة قرب مبنى "السفير" في 31 مارس و3 إبريل من سنة 1984. وفي 14 يوليو/ تموز 1984 وقعت محاولة لاغتياله أمام منزله، فأصيب في وجهه وفي بعض أنحاء جسده. وفي 15 يناير/ كانون الثاني 1993 أُطلقت قذيفة صاروخية على مبنى الصحيفة، ولم يرهب ذلك "السفير" أو مؤسسها، فظلت وفية لمبادئها القومية والتقدمية.

وفي أثناء الاجتياح الإسرائيلي لبنان في سنة 1982 كانت "السفير" الصحيفة اللبنانية الوحيدة التي لم تتوقف عن الصدور، وكانت عناوينها اليومية تُعاد كتابتها على جدران بيروت كطريقة من طرائق الصمود في هذه المدينة، والأشهر من عناوينها آنذاك "بيروت تحترق ولا ترفع الأعلام البيضاء".

وفي هذا الميدان، وقفت "السفير" بقوة ضد انتخاب بشير الجميّل رئيساً للجمهورية بحماية الدبابات الإسرائيلية، وعارضت اتفاق 17 أيار 1983 الذي كان خليفته أمين الجميّل (صار رئيساً بعد اغتيال بشير الجميّل في 14 سبتمبر/ أيلول 1982) أن يوقّعه لولا اندفاع القوات الفلسطينية وقوات

وقد عطّلت الدوائر اللبنانية "السفير" غير مرة، ومنعتها من الصدور، وكان آخرها في 14 مايو/ أيار 1993 في عهد الرئيس رفيق الحريري، حين أحيلت على محكمة المطبوعات بعد تعطيلها سبعة أيام متواصلة، ومع ذلك لم تنقطع "السفير" عن الصدور يومًا واحدًا تحديًا للسلطات الغبية والجاهلة، فصدرت باسم مجلة "بيروت المساء" (بحرف صغير) وتحتها عبارة "السفير" بحرف كبير وتحت شعارها المعروف المعتاد.

انتهى ذلك العصر للصحافة اللبنانية وانحسر دورها الريادي بانتهاء تجربة صحيفة السفير اليسارية العروبية في 2017، وبانتهاء تجربة صحيفة النهار الليبرالية المسيحية مع وفاة غسان تويني في 2012، ويكفي طلال سلمان في هذا الميدان أن تاريخ الصحافة في لبنان، وتاريخ لبنان الثقافي والسياسي، مدينان له ولصحيفة السفير بصفحات بهية وبطاقات وحوادث وبمواقف جريئة تحصى ولا تُعد.

تلك هي "السفير"، وهذا هو طلال سلمان الذي ما انفك يشع بالطيبة والتواضع والكرم، ويتحرق أسًى وحسرة على ما آلت إليه أوضاع العرب، وهو الذي أفنى عمره الأبيض بين الأوراق البيض والأحبار السود والأقلام الزرق في سبيل نهضة العرب.



دلالات

طلال سلمان | صحيفة السفير



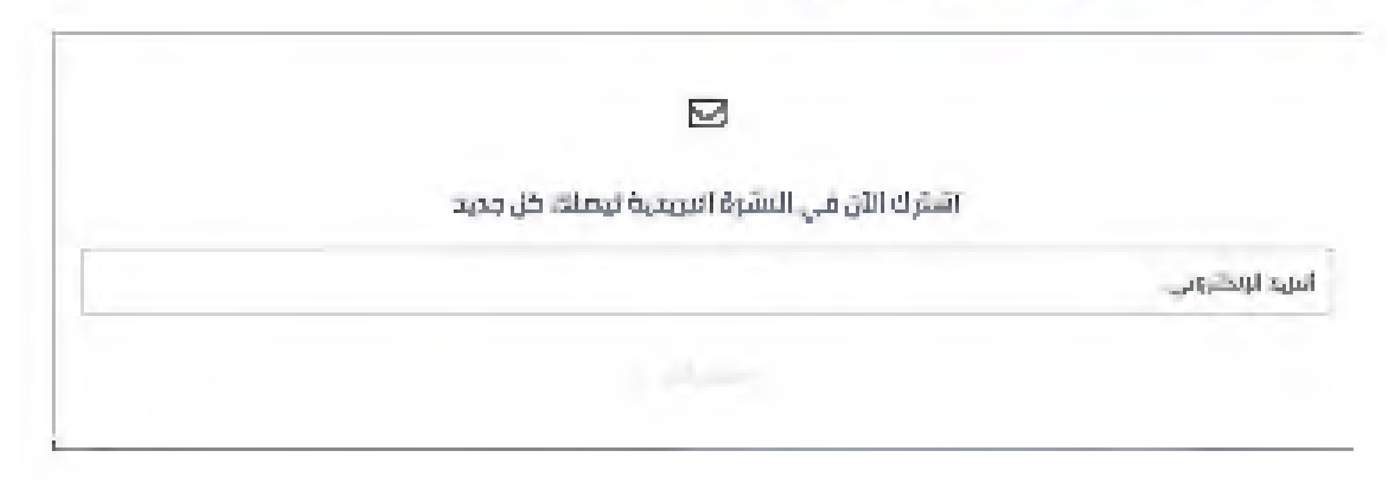
ميتا إيه آي متاح الآن تطبيقاً مستقلاً



الأردن يحظر النشر في قضية "خلية تصنيع الصواريخ"



يوروفيجن أيسلندا: ترفض مشاركة إسرائيل



اشترك الآن في النشرة البريدية ليصلك كل جديد

البريد الإلكتروني

اشترك